الحسن البصري

حياته، وصلته بالحكام

الأستاذ الدكتور مصطفى بيومي

نسبه ومولده : هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار شيخ الإسلام البصري . ويلاحظ في هذا التعريف أنه كان يلقب بشيخ الإسلام ، ويكنى بأبي سعيد (١).

أما بالنسبة لوالده ، فتكاد كلمة الباحثين تجمع على أن اسمه « يسار » ويسار هذا — كما ذكر صاحب فتوح البلدان — كان ينادى قبل الإسلام بـ « فيروز » وكان من سبي « ميسان » — أسفل البصرة بالعراق — سباه الأمير « المغيرة بن شعبة » حينما افتتحها في عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ، وقد صار بعد السبي مولى للصحابي الجليل « زيد ابن ثابت » .

(١) هذا ما رواه الحافظ « الذهبي » في « تذكرة الحفاظ » ؛ أما غيره كالمناوي في « الكواكب » فكان يقصره على اسم « الحسن البصري » ؛ ومنهم من كان يوافق « الذهبي » على الإسم والكنية ، ويترك اللقب ، كالبخاري في « التاريخ الكبير » فيقول : « الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد البصري » ؛ ومنهم من كان يلقبه بإمام أهل البصرة ، كابن العماد الحنبلي في « شذرات الذهب » .

بل قال بعض العلماء : إذا ذكرت كلمة « الحسن » في كتب التفسير والحديث ، والفقه ، والرقائق . . . فإنها تنصرف — غالباً — إلى « الحسن البصري » صاحب هذه الترجمة .

أقول هذا ، دفعاً لما يحدث من التشابه بينه وبين آخرين يشابهونه في الإسم ، فهناك من يعتقد بأنه المراد بالحسن البصري المذكور في كتاب « الف ليلة وليلة » وليس بصحيح فذاك اسمه : حسن الصائغ البصري .

وهنـــاك من يعتقد بأنه صاحب كتاب « أدب الدنيا والدين » وهو غير صحيح ، فصاحبه هو « أبو الحسن البصري الماوردي » مؤلف « الأحـــكام السلطانية » وغيرها .

وأمه « خيرة » وهي من السبايا أيضاً صارت بعد ذلك مولاة لأُم سلمة زوج النبي ﷺ .

وفي هذا البيت النبوي الكريم كانت ولادة الحسن سنة ٢١ هـ الموافق سنة ٦٤١ م ، هذا ما عليه جمهور المحققين من علماء التراجم والطبقات .

بيئتـــه وتأثيرها فيه : لقد جمع الله تعالى في « الحسن البصري » الأُمور التي تكون منه الإنسان السوي ، المفكر ، الزاهد ، الداعي إلى الله على بصيرة .

وتتلخص في الأُمور الآتيـــة : —

أولاً : الوراثة : وفي هذا يقول « ابن سعد » في « الطبقات » — يصف الحسن من الناحية الخلقية — : « كان الحسن فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً » .

ويقـــول ابن قتيبة في المعـــارف : « حدثني عبد الرحمن عن الأصمعي عن أبيه قال : « ما رأيت أعرض زنداً من الحسن كان عرضه شبرا . . . » .

ثانياً : البيئـــة : والمقصود بها الأُسرة التي عاش معها ، والجمهور الذي تربي في وسطه ، والحسن من هذه الناحية عاش مع والده « يسار » الذي كان يعمل في الشئون الزراعية ، وهذا ما يدعو الإنسان إلى الاعتقاد بأنه قد تربي من مصدر حلال وهو سبب من أسباب البركة التي حلت فيه .

وكانت أُمه بسبب اتصالها بأزواج النبي ﷺ على جانب من المعرفة الدينية ، وذلك لاتصالها بالبيئة العربية الخالصة في ذلك الوقت ، وميلها إلى ذكر القصص الوعظى ، حتى بعد أن رحلت إلى البصرة ، وبلغ من تأثير أُمه فيه أنه كان أحياناً يروي عن أُمه عن أُم سلمة (١) .

فإذا ما تركنا بيئته الخاصة وعرجنا على بيئته العـــامة نجد أنه قد تربي وسط الرعيل الأول الذين قال الله فيهم :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد حـ ٧ص ١١٤ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان حـ ١ ص ٢٢٨ .

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . . . الآيــة) (١) .

والذين قال عنهم صاحب الرسالة الخالدة : « لا تَسُبُّوا أحداً من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه (٢) » .

قضى الحسن البصري مرحلة الطفولة والصبا في المدينة المنورة بين أصحاب النبي ﷺ ، وأخذ يتردد على المسجد النبوي ، وفيه كان يرى ويسمع من بعض الصحابه — عليهم رضوان الله تعالى — ونتيجة لذلك : حفظ القرآن الكريم ، والكثير من أحاديث النبي الكريم ، وبعض أقوال الصحابة الذين نهلوا من معين النبوة الصافي .

وكان قد بلغ وهو بالمدينة الرابعة عشرة من عمره ، وتعلم الكتابة وضبط الحساب ، مما أهله بعد ذلك أن يكون كاتباً للربيع بن زياد الحارثي والي « خراسان » ، وأحد فاتحيها لعمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ولم يقتصر تردده على بيت الله تعالى لأخذ العلوم والمعارف المختلفة عن أصحاب النبي ﷺ وهو في شبابه ، بل كان يتردد أيضاً مع أُمه في بيوت أزواج النبي ﷺ فكان يكتسب من هذا الفقه في الدين كالمسجد . وفي المدينة المنورة شهد الحسن ما تواقع فيه المسلمون من فتن مثيرة أدت إلى سفك الدماء ، حتى استشهد بسببها الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » .

هذه الصورة الدامية انطبعت في ذهن « الحسن » مما جعله دائماً ينفر من الفتن مدة حياته ، ومن يدري لعل هذه الصورة البشعة هي التي غرزت في نفسه عاملي الخوف ، والحزن اللذين لازماه طوال عمره . ومما يدل على شهوده مصرع الخليفة وهو بالمدينة قوله : « كنت بالمدينة يوم قتل عثمان وكنت ابن أربع عشرة سنة » .

كذلك سمع دعوة « أبي ذر الغفاري » — رضي الله عنه — إلى توزيع أموال الأغنياء على

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري حـ ٤ .

الفقراء ، مما كان له الأثر الكبير في تكوين شخصيته ، خاصة بعد أن انتقل من المدينة إلى البصرة (١) .

ويقول « الذهبي » في تاريخ الإسلام : « وقد سمع – أي الحسن – من عثمان وهو يخطب ، وشهد يوم الدار ورأى طلحة وعليا ، وروى عن ابن عباس ، وابن عمر ، وجابر ابن عبد الله ، وخلق كثير من الصحابه – عليهم رضوان الله تعالى – » .

انتقـــال الحسن وأسرته إلى البصرة :

انتقل الحسن وأسرته إلى البصرة سنة ٣٦ هـ في ولاية « عثمان بن حنيف » من قبل أمير المؤمنين « على بن أبي طالب » وهذا الانتقال كان لاعتبارات متعددة كالحنين إلى الوطن ، لأن أسرته – كما عرفنا – جاءت من البصرة مع السبي ، وخروج الإمام « علي» من المدينة ، والتكسب ، إلى غير ذلك من الاعتبارات .

ومنطقة العراق في هذا الوقت كانت مركزاً للمناقشات والجدل ، كما كانت موطناً لمدنيات قديمة .

كان السريان قد انتشروا فيها ، وأنشئوا لهم مدارس قبل الإسلام ، وكانوا يدرسون فيها الآداب اليونانية .

وكان في العراق قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجادل في كثير من العقائد . وكان في الحيرة يونان مثقفون ، كما كان العراق في الإسلام ميداناً للفتن والحروب والتناحر المذهبي بين الشيعة والخوارج .

في ذلك المزدحم من الآراء والأفكار ، وفي ذلك المزيج من النحل والأهواء اكتملت للحسن رجولته ، والنفس القوية تستخلص غذاءها الروحي من كل الأفكار(٢) كالرجل القوي يستخلص من حسك السعدان غذاءه المادي ، فلا عجب إذا تغذت نفس « الحسن »

(١) المنية والأمل للمرتفى ، وتاريخ الإسلام ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص١٥٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) من تاريخ الجدل . . للشيخ محمد أبو زهرة . طبع ونشر معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٦٩ م .

من هذه الأفكار المتضاربة ، والآراء المتناحرة ، واستخلصت من بينها ما ينميها ويقويها ، والنفس القوية تستفيد من باطل الآراء كما تستفيد من صحيحها ، إذا عرفت ما في الباطل من دخل ، وما في ثناياه من خطل ، فيكون إدراكها للحق على بينة ويقين ، وليس قوياً في نفسه ذلك الذي يتحير في وسط الشبهات ، ومتنازع الأهواء والأفكار ، ولكن القوي في نفسه هو الذي يتخير مذهبه الحق وسط أعاصير الأهواء ، فلا يتطرق الشك إلى قلبه ، ولا يرد الاضطراب إلى نفسه ، بل لا يزيده اضطراب الآراء إلا يقيناً ، ولا تنازع الأفكار إلا تثبيتاً .

خصوصاً وأن المناهج العلمية في عهده أخذت تتميز ، فكان فقه العراق وعلى رأسه « عبد الله بن مسعود » ثم علقمة ، وإبراهيم النخعي ، وحماد بن أبي سليمان ، وعلى مائدة هؤلاء تربى أبو حنيفة النعمان ،

وفي المدينة المنورة كان الفقه الحجازي وعلى رأسه « عبد الله بن عمر » وسعيد بن المسيب ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وابن شهاب الزهري ، ومن مائدتهم تغذى الإمام مالك — رضي الله عنهم جميعاً — .

وهكذا أخذت المدارس الفقهية تتبين مناهجها في عصر الحسن ، وكلها يلتمس ينبوعه من علم الرسول — عليه الصلاة والسلام — وما نقله أصحابه ، والاختلاف إنما هو في المنهج والتخريج .

في معتلج الآراء ، ومضطرب المذاهب استطاع « الحسن البصري » أن يتخذ له مذهباً يدين به في الدين ، آمن به حق الإيمان ، وأذعن له حق الإذعان ، وكان كالطود الأشم تصطدم الرياح ، فتبدد حوله ، وهو جاثم في مكانه ، يستخلص من تلك الفتن ما يدعم حجته ، وينير مهجته ، ويقوي به دعوته (١) .

حياته الأسرية واليومية :

إن أخلاق الإنسان دائماً تظهر أجلى ما تكون على حقيقتها في بيته وأهله ، فكثيراً ما يمثل

---

(١) المرجع السابق .

في مجتمعه مالا يعتقده ولا يفعله ، ومن أجل هذا يوصى المصطفى ﷺ أصحابه وأمتـه فيقول : « خياركم خياركم لنسائكم (١) » .

والحسن البصري كان من هذا الطراز الرفيع ، الذي أحسن العشرة مع أهله . تزوج – رحمه الله – من أصل غير عربي ، كما هو متبع في هذا الوقت غالباً من عدم تزويج العربية من غير العربي (٢) .

حتى أننا نجد « الحسن » حينما كان يحدث بينه وبين زوجته عراك يقول لهـا : يا علجة! ومعناها : نفي كونها عربية ، ويظهر من ذلك أن زوجته لم تكن على المستوى الذي يعيش معها كزوج ، لأنها كثيراً ما كانت تصطدم به في منهاج حيـاته (٣) .

ورزق الحسن بولدين : « سعيد » وبه كان يكنى ، و « عبد الله» كما رزق بنتا . وتصف بعض المصادر معاملة الحسن لزوج ابنته – حينما يزوره – قائلاً : « مرحباً بمن كفى المؤنة ، وستر العورة » ، ثم يتنحى له عن مكانه تكريماً له .

وولد للحسن غـلام فقال بعض جلسائه : بارك الله لك في هبته ، وزادك من أحسن نعمته ، فقال الحسن : « الحمد لله على كل حسنة ، ونسأل الله الزيادة في كل نعمة ، ولا مرحباً بمن كنتُ عائلا أنصبني ، وإن كنتُ غنياً أذهلني ، لا أرضى بسعيي له سعيا ، ولا بكدي له كدًّا ، حتى أشفق له من الفاقة بعد وفاتي ، وأنا في حال لا يصل إلى من غمه حزن ، ولا من فرحه سرور (٤) » .

وفي هذا الرد للحسن البصري على بعض جلسائه درس بليغ في كيفية استقبال النعم ومعرفتها على حقيقتها والشكر عليها .

---

(١) رواه ابن ماجه مرفوعاً عن عبد الله بن عمرو .

(٢) أوذي ابن عون – تلميذ الحسن – من قاضي البصرة « بلال بن أبي بردة » حينما أراد أن يشذ عن هذه القاعدة المعروفة آنذاك .

(٣) ، (٤) لسان العرب لابن منظور مادة « طبع » ، وتهذيب ابن عساكر حـ ٣ ص ٣١٩ ، والطبقات الكبرى لابن سعد حـ ٧ ص ١٢٥ – ١٢٦ ، عيون الأخبار لابن قتيبة حـ٧ ص ٩٨ ، والبيان والتبيين للجاحظ حـ٢ ص ١٤٧ .

ويكفي في هذا المقام أن نذكر بعض الآيات الكريمة التي توافق روح الحسن ومزاجه

قال تعالى :

(يأيُّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله .. الآية) (١)

وقال أيضاً :

(يأيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإنّ الله غفور رحيم ، إنّما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) (٢) إلى آخر الآيات الدالة على ذلك .

وكان الحسن في حياته المعيشية كثير الشبه بأصحاب المصطفى ﷺ فكان يعيش مع أسرته عيش من ينتظر النعيم الدائم يوم القيامة ، وإذا أخذ العطاء من الدولة — الذي لا يفهم منه معنى الأجر — حجز لأسرته ما يسد الرمق الضروري ، ويستر العورة ويوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين .

حتى نجد « الحسن » نفسه يقول : « كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف(٣) » . هذا الوصف لبيت الرسول طبقه « الحسن » على نفسه ، فقد كان منزله — رحمه الله — وما يحتويه يقي فقط من برد الشتاء ، وحر الصيف ، وفي منتهى البساطة من حيث المبنى ، وما فيه من الأدوات ، التي تذكر بما كان عليه النبي الكريم . روى عن عبد الله بن عمر قال : « مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصا ، فقال : ما هذا ؟ قلنا : خص لنا قد وهى فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك(٤) » .

وقد بلغ من عظمة « الحسن » أنه كان يلزم أسرته بهذا الخلق الرفيع ، ويحملهم عليه ، بصورة يندر وجودها أسوة بمن سبقه — خاصة عمر بن الخطاب — متمثلاً قول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة)

(١) المنافقون آية ٩ . (٢) التغابن ١٤ — ١٥ .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي جـ ٤ ص ١٠٠ ، والإحياء للغزالي جـ ٤ ص ٢٣٦ .

(٤) رواه الترمذي وصححه ، وأبو داود ، وابن ماجه .

يذكر « حميد الطويل » عنه قال : خطب رجل إلى « الحسن » ابنته ، وكنت السفير بينهما فرضيه ، وأراد أن يزوجه فأتيت عليه ذات يوم وقلت : وأزيدك — يا أبا سعيد — أن له خمسين ألفاً . قال : أقلت : له خمسون ألفاً ؟ ما اجتمعت من حلال ! قلت : يا أبا سعيد ، إنه والله — ما علمت — لورع ، مسلم . فقال : « إن كان جمعها من حلال لقد ضن بها على حق . لا يجري بيني وبينه صهر أبداً » ! .

وقضى الحسن — رحمه الله — معظم حياته بين بيته المتواضع — كما عرفنا — لا فراش ولا بساط ، ولا حصير ، إلا سرير مرمول — أي منسوج من السعف بالحبال — عليه (١) .

وكان كثير التردد على المسجد ، يؤدي ما عليه نحو الله تعالى من عبادات وتقرب إليه سبحانه ؛ ونحو نفسه من تعليم وتهذيب ، على يد أصحاب رسول الله ؛ ونحو الناس الذين كان يعيش بينهم ، خاصة وأن المنطقة التي كان يعيش فيها ليست بالمستوى العالي — كما يحب بعض الناس أن يسكن — وإنما كانت منطقة الفقراء والمحتاجين ، وكثيراً ما يطلبون منه الضروريات فلا يتقاعس أبداً ، ولا يحتقرهم ، بل كان يعمل على قضاء حوائجهم ، كما كان يعلمهم ويهذبهم . وكان — رحمه الله — يفهم معنى الجوار ويعمل به ولو كان هذا الجار على غير الإسلام ، وبالفعل كان له جار يهودي كثيراً ما يحسن صلته .

ولم يقتصر إشرافه على أسرته ، بل في معظم الأحوال نراه مشرفاً ومساعداً لأسرة أخيه « سعيد » الذي مات قبله (٢) .

ومن عاداته في حياته اليومية : أنه كان يستريح وقت القيلولة ، ليستعين بها على القيام بالليل ، مقتدياً بقول النبي ﷺ : « قيلوا فإن الشياطين لا تقيل (٣) » .

وكان للحسن مجلسان : أحدهما في المسجد ، عامًّا لكل من يريد التفقه في دينه ، فاسحاً صدره لجميع الأسئلة التي توجه إليه ، ولم يكن في مجلسه هذا مستبداً برأيه ، لا يدع الكلام لغيره ، بل على العكس كان متواضعاً في ذلك ، مما جعل تلميذه « واصل بن عطاء »

(١) محاضرات الراغب الأصفهاني جـ ١ ص١٥٤ ، وتاريخ الإسلام للذهبي جـ ٤ ص ١٠٤ .
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي جـ ٤ ص ١٠٣ ، وأمالي المرتضى جـ ١ ص ١١١ ، والطبقات الكبرى جـ ٧ ص ١٢٨ .
(٣) أخرجه الطبراني عن أنس مرفوعاً .

يرد على سؤال مرتكب الكبيرة الذي وجه إلى « الحسن » قبل أن يجيب « الحسن » على السؤال، مما حمله أن يقول : « اعتزلنا واصل »(١) .

وتطـــور مجلس الحسن هذا في المسجد ، لدرجة أنه كان المقياس الذي توزن درجة الثقافة الإسلامية في هذا الوقت ، وخير تعبير له – في نظري – ما قاله الدكتور « حموده غرابة » في كتابه « الأشعري . . » : بعد أن تحدث عن الفرق المختلفة التي ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ من خوارج وشيعة على مختلف أنواعها : قدرية ، وجهمية . . . قال : « فزاد ذلك من حدة الجدال بين المسلمين ، ثم كان أن التقت هذه التيارات المختلفة جميعاً عند رجل له مكانه في تاريخ الإسلام العقلي وهو « الحسن البصري » .

وثاني المجلسين في بيته مع بعض أصفيائه من أهل الزهد والورع ، وكان يعني بهم عناية خاصة ، حتى إن أهله كانوا يملون منهم ، لطول ما يجلسون معه ، ولكن سرعان ما يبين لأهله أهميتهم وحبه لهم ، فيصرفون النظر عنهم ويتركونه يتمتع بمجلسهم . هذا المجلس بالمنزل كان جل الحديث فيه عن « الرقائق »(٢) . وإن سأله أحد من الناس عن هذه الجلسة المنزلية ، التي يتحدث فيها عن الزهد والنسك مع إخوانه قال : « إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر » .

وكان – رحمه الله – كثيراً ما يختم مجلسه بهذا الدعاء :

« اللهم بريء قلوبنا من الشرك والكبر والنفـــاق والرياء والسمعة والريبة والشك في دينك يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك واجعل ديننا الإسلام القيم »(٣) .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني جـ ١ ص ٤٨ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ .

والمراد بالرقائق يبينه ما قاله ابن الجوزي في كتابه « صيد الخاطر » : « رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق ، والنظر في سير السلف الصالحين ، فأما مجرد العلم بالحـــلال والحـــرام ، فليس له كبير عمل في رقة القلب ، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين » .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي جـ ٤ ص ١٠٥ وما بعدها .

اشتراكه في الفتوحات ورجوعه إلى البصرة :

لم تكن كل حياة « الحسن البصري » في المدينة ، أو في البصرة فقط ، بل كان يرتحل عنهما كلما سنحت له الفرصة ، لأداء واجب من الواجبات ، كتأدية فريضة الحج ، والمساهمة في الفتوحات الإسلامية .

فقد ثبت اشتراكه في الفتوحات الشرقية مع « الأحنف بن قيس » أيام « معاوية بن أبي سفيان » وقد مكث الحسن مع عبد الرحمن بن سمرة في غزو « كابل » ، و « الاندقان » ، و « الاندنمان » و « زابلستان » قرابة ثلاث سنين .

وقد ولى عبد الرحمن سجستان سنة ٤٣ هـ وخرج معه أشراف الناس مثل : عبد الله بن خازم ، وقطرى بن الفجاءة ، والمهلب وغيرهم ، وشهد « الحسن » معه حصار « كابل » وفتحها ، وذكر « الحسن » أنهم في إحدى هذه الغزوات كانوا يأكلون لحوم الخيل (١) .

وفي سنة ٥١ هـ استعمل « الربيع بن زياد » على خراسان ، فذهب « الحسن البصري » معه كاتباً ، كما ذكرنا آنفاً (٢) .

واشتراك الحسن في هذه الغزوات أتاح له فرصة طيبة أبرزها أن تعرف على حياة الحرب كما عرف حياة السِّلم .

والمراجع التي بين أيدينا – فيما نعلم – لم تذكر لنا بالتفصيل ما هو دور « الحسن » في تلك الحروب ؟ وغالب الظن أن « الحسن » كان إماماً للكتائب المسلمة – إن صح هذا التعبير – يؤمهم في الصلاة ، ويحضهم على الجهاد ، وهذا ما يشبه في إيامنا إلى حد ما بالتوجيه المعنوي .

ولاشك أنه لو أحسن سير التوجيه المعنوي في الجيوش إلى ما يرضي الله ورسوله ، لتحركت كتائب الإيمان في قوة وشجاعة وثقة في النصر بإذن الله ، وفي هذه الغزوات أيضاً

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٠٤ – ٤٠٥ .
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي جـ ٣ ص ٩٩ .

قابل الكثير من أصحاب النبي ﷺ والفقهاء ، والشعراء وكان شجاعاً في هذه الحروب كما ذكر تلامذته .

كذلك استفاد من هذه الفتوحات معرفته الأكيدة بقيمة العلم في المجتمع خاصة الأجناس غير العربية التي كانت تجد من بعض العرب احتقاراً .

قال سالم بن أبي الجعد : « اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني ، فقلت : بأي شيء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم ، فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له » ، وقال بعض الحكماء : « إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء . ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره » وإذا كان مقتل « عثمان » أثر فيه قبل ذلك فمساهمته في الفتوحات أثرت فيه أيضاً (١) .

وبعد هذه الفترة التي قضاها « الحسن » في الفتوحات رجع إلى البصرة ، وقد عزم في نفسه على تخليص المجتمع مما لحق به من فساد ينخر فيه ، وإنهماك في الدنيا كاد يؤدي إلى كارثة في الدين .

موقف الحسن من اشتراكه في الفتوحات والعودة إلى حلقة المسجد :

استفاد الحسن من اشتراكه في الفتوحات ، وعاد منها إلى مسجد البصرة بنفس جديدة ، وهمة عالية ، للوصول إلى الهدف المنشود ، الذي رسمه لنفسه في ظل الكتاب والسنة . ويبدأ عمله هذا بحلقات مسجد البصرة الجامع ، حيث التزود بالثقافات الدينية المختلفة ، التي اتجهت إليها نفسه ، وكانت من أهم الأسباب القوية المكونة لشخصيته .

أمام هذه الروح الوثابة يحاول أحد الباحثين المحدثين وضع تفسير لهمة الحسن العالية ، وعزيمته القوية بعد رجوعه إلى البصرة بقوله : « لعل الحسن قد أصيب بخيبة أمل في هذه الغزوات ، حين لمس الإجحاف الذي كان يلقاه الموالي أمثاله من جانب العرب أصحاب السيادة ، فأدرك أن مكانه الصحيح ليس في هذه الفتوحات ، وإنما هناك في حلقات مسجد البصرة ، وقد صح عزمه على أن يسلك الاتجاه الوحيد الذي تطمئن إليه نفسه ، ويرضى

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي حـ ١ ص ٨ وما بعدها ، وتاريخ الإسلام للذهبي حـ ٣ ص ٩٩ .

مزاجه الديني ، والذي سلكه كثير من الموالي ، أملاً في أن يعوضوا به عن الضعة التي لحقتهم من جراء انتمائهم إلى العناصر غير العربية »(١) .

هذا التفسير من جانب الدكتور النص – في نظري – ليس بصواب ؛ ذلك أن الحسن البصري – رحمه الله – كان يعلم قيمة الجهاد في سبيل الله تعالى ومبلغ عظمة الشهادة في سبيله ، وهو الذي أخذ على نفسه العهد أن يعمل بما يقول ، فكيف يصاب بخيبة أمل في هذه الفتوحات ؟ ! مهما لمس الاجحاف الذي يلقاه الموالي أمثاله . . ولو صح هذا لما وصل « الحسن » إلى القمة في نظر الأُمة كلها .

ولكن بماذا نفسر أو نعلل ما حدث ؟ .

في الواقع أن الحسن – فيما أعتقد – بثاقب فكره ، وضوء حكمته ، وتمام إخلاصه لله رب العالمين – وجد أن الوقوف أمام أعداء الله تعالى لا يقتصر على الحرب في ميدان القتال فقط ، ولكن لابد من جيوش متعددة لإحراز النصر : جيش لميدان القتال ؛ وجيش للعمل الدائم لتجهيز ما يحتاجه الواقف أما العدو من طعام وشراب وثياب ومعدات ؛ وجيش لمحاربة الشائعات وإحباط المؤامرات التي ترمي إلى ضعف الروح المعنوية ، التي لولاها لما انتصر جيش أبداً .

والدليل على ذلك التاريخ والواقع ؛ فنحن مثلاً في معركتنا مع العدو الاسرائيلي ومن يسانده ؛ حينما أصبنا بنكسة فاضحة لم يكن عددنا قليلاً ، أو عدتنا ضعيفة ، وإنما كنا في أشد الحاجة إلى هذه الروحية العالية ، التي تنساب في دماء الجنود ، فيصبحون بهذا كما يقول أحد الصالحين : « رهبان بالليل فرسان بالنهار » ومن الذي يبعث في هؤلاء الجنود – بل في الأُمة كلها – هذه الروح العالية سوى الدعاة إلى الله المخلصين ، الذين تربوا على مائدة القرآن الكريم وهدى الرسول الكريم ؟ ! .

فإذا نظرنا بعمق لوجدنا أن من أهم الجيوش هذا الذي يحارب الأفكار الخبيثة ،

(١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي للدكتور إحسان النص ص ٣٤٢ – ط ثانية – دار المعارف .

والآراء الوضيعة ، هذا بالإضافة إلى أن « الحسن » كان يميل بحكم نشأته وتربيته إلى العلم والمعرفة .

فالحسن البصري اختار أشق الأعمال في الحفاظ على الأُمة الإسلامية ، ومَنْ غير « الحسن » يصلح للقيام بهذه المهمة في هذا الوقت ، خاصة في البصرة ؟ ! وكأني بالحسن – رحمه الله – باشتراكه في الفتوحات الإسلامية أراد أن يضرب المثل للأُمة في الجهاد ، لنشر الدعوة المحمدية ، وبأن العلماء الحاملين لكتاب الله وسنة رسوله لا يقتصرون على القول ، بل يقولون ويفعلون ، وهذا هو السر في استجابة الناس له ، وطاعتهم إياه .

وهـــذا الرد وغيره يرد به أيضاً على الدكتور إحسان عباس في كتابه عن « الحسن البصري » فقد ذكر رأياً يشابه رأي الدكتور النص السابق .

وبالنسبة لاحتقار الموالي من العرب فالرد على ذلك من وجهين :

الوجـــه الأول :

أن نزعة العداء والاحتقار التي كانت تظهر من العرب نحو العناصر الأعجمية لم تكن سائدة – غالباً – في الأوساط الدينية والعلمية ، فالرجل الذي كان يعرف من الموالي بصلاحه وتقواه ، أو بعلمه وأدبه ، كان ينال من جمهرة الشعب ومن الطبقة الحاكمة كل احترام وتقدير ، ويكفي أنه لما توفي إمامنا « الحسن البصري » خرجت البصرة كلها تشيع جنازته ، حتى تعطلت صلاة العصر لأول مرة بمسجدها الجامع ، إلى غير ذلك مما هو مبسوط في تراجم العلماء والصالحين من الموالي .

ولعل هذا – كما يقول أحد الباحثين(١) – يزيل التناقض الذي يبدو في بعض الكتب القديمة من أخبار تدل على احتقار الموالي في تلك الحقبة من الزمن ، وأخبار أخرى تدل على احترامهم .

والوجه الثاني : أن كثيراً من الموالي كانت تبدو منهم بوادر تبعث الشكوك والهواجس في نفوس الحكام الأمويين ، إذا كانوا يرون من بعضهم خروجاً عن المبادىء الإسلامية ،

(١) ، (٢) الموالي في العصر الأموي للأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار دار النيل للطباعة بالقـــاهرة .

ومحاولة للانتكاس والرجوع إلى ديانتهم القديمة ، وكانوا يرون من البعض الآخر نزعات قومية ، تميل إلى القضاء على السيادة العربية ، وتتلمس الفرص لذلك ، وطالما أقضوا مضاجع الأمويين بالدعايات السرية ، والثورات المتعاقبة ، فأضاف هذا إلى سلوكهم عاملاً جديداً إلى العامل الأصيل في كراهية الموالي واحتقارهم ، وهو العصبية العربية ، وكان الأمويون من أجل هذا وذاك يقابلون العدوان بمثله أو أكثر ، وتبعاً لهذا كانت تنحدر منزلة الموالي وتسوء حالتهم ، ويلاقون من العرب ألوانا مختلفة من العنت والازدراء .

نظر « الحسن » إلى مجتمعه ليحدد طريقه في كيفية ربطه بالله تعالى بعد أن شذ الكثير منه عن الطريق السوي ؛ حينئذ وجد المجتمع يبرز فيه صنفان من الناس غالباً : صنف أقبلت عليه الدنيا بزينتها ، فأقبل هو الآخر عليها ، وأخذ منها بالنصيب الوافر وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ زُيِّنَ للناسِ حبُّ الشهواتِ من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعام والحرثِ ، ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا والله عنده حسن المئاب ﴾ (١)

ومن العجيب أن هذا الصنف من الناس نسى المنعم تبارك وتعالى ، وأصبحت حياته مادية بحتة ، حتى أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

وفي مقابل هؤلاء الغارقين في بحار المادية الزائلة وجد صنفاً آخر ولو أنه كان قليل العدد إلا أنه قوي التأثير ، بسبب شكره لربه . قال عز من قائل :

﴿ وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَكُورُ ﴾ (٢)

هذا الصنف من البشر استطاع بفضل الله تعالى أن يقاوم هذا الإغراء ، وسلك في حياته مسلكاً يتفق مع المثل الأعلى ، الذي يسعى إلى تحقيقه . هؤلاء سموا « بالزهاد » فقام فريق منهم في وجه هذا التيار المادي الجارف ، وعمل على تعويق هذا الإقبال القوي على الملذات الفانية ، والمتع الدنيوية الزائلة .

---

(١) سورة آل عمران . الآية ١٤ .

(٢) سورة سبأ . الآية : ١٣ .

وبالطبع كان من هؤلاء الزهاد من تغالى في زهده لدرجة تبعدهم عن سماحة الإسلام ، وجوهره الأصيل الصالح لكل زمان ومكان .

وبين هذه الأمواج المتلاطمة يقوم شيخ البصرة الكبير « الحسن البصري » بدعوته المعتدلة إلى الزهد الحقيقي ، وسرعان ما وصل النداء من هذا الواعظ الشاب إلى القلوب فهزها ؛ وإلى العقول فخاطبها ، وإلى الأرواح فغذاها ، حتى أصبحت حلقة صاحب « العمامة السوداء » لا تدانيها حلقة . ومن الأدلة على ذلك : حينما سئل الصحابي الجليل أنس بن مالك ،رضي الله عنه ، عن مسألة . قال : « سلوا مولانا الحسن ؛ إنا سمعنا وسمع ، فحفظ ونسينا »(١) ، وقال هشام بن حسان : سمعت الحسن يقول : « والله ما أحد من الناس بسط له في أمر من أمور دنياه فلم يخف أن يكون ذلك مكراً به ، واستدراجاً له إلا نقص ذلك من عمله ودينه وعقله ، ولا أحد أمسك الله الدنيا عنه ، ولم ير أن ذلك خيراً له إلا نقص من عمله ، وبأن العجز في رأيه » . وكان يقول : « ما عجبت من شيء كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر ، وهل تشعبت الكبائر إلا من أجلها ؟ ! وهل عبدت الأصنام ، وعصى الرحمن إلا لحب الدنيا وإيثارها ؟ ! » (٢) .

صلته بالحكام

موقف الحسن من الحجاج :

تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق ما بين عام ٧٥ ، ٩٥ هـ من قبل الخليفة « عبد الملك بن مروان » بعد أن استشرى الفساد فيها ، وكان يشتهر بالفصاحة ، والبلاغة ، والبطش ، والنكاية بمن يقف أمامه ؛ لهذا كان موقف « الحسن » منه في منتهى الدقة ، والحرج

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد حـ ٧ ص ١٢٨ .

(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٣٧ — ٣٨ تحقيق الأستاذ حسن السندوبي .

كان موقف الناصح الأمين ، الذي لا يبخل بالنصيحة مهما كانت الظروف والأحوال ، ولكن بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وبالمجادلة الحسنة ، علماً بأن « الحسن » لو أراد الفتوى صراحة ضد « الحجاج » لشبت ثورة عارمة بالبصرة ، لا يعلم مصيرها إلا الله ، ولهذا كان يرمز إلى المخرج من هذه المحنة التي أوجدها الحجاج ، أو خلقها الظرف السياسي يوم ذاك على الأصح ، فكان يندد — رحمه الله — بنوازع النفوس ، ويكشف عن الأعمال التي انحط إليها الناس ، وكأنه يريد بذلك أن يوضح لهم أن العلة إنما هي في أنفسهم ، وأن الله — عز وجل — ابتلاهم بسوء أعمالهم ، وكأنه يشير بذلك إلى قول الله تعالى :

(إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم) .

وكان الحسن كثيراً ما ينصح الحجاج : تارة عن طريق التصريح ؛ وأُخرى عن طريق التلميح ، كما كان يُعرّض بالحجاج في خطبه ، منكراً عليه نفاقه ، ومخالفة قوله لعمله ، فيقول : « مازال النفاق مقموعاً حتى عمّ هذا عمامة ، وقلد سيفاً » ، ويقول : « يتلو كتاب الله على لخم وجذام ، ويعظ وعظ الأزارقة ، ويبطش بطش الجبارين » ويقول : « اتقوا الله فإن عند الله حجاجين كثيراً » (١) .

وقد يتساءل بعض الناس : لماذا لم يبطش الحجاج بالحسن ؟

والجواب : من ناحية الحسن لم يعلن الثورة على الحجاج — بمعنى الانقلاب في العصر الحديث — لأنه كان يخاف الفتن ، هذا فضلاً عن الدماء التي سالت ظلماً وعدواناً على مرأى ومسمع منه ، فهو يخشى تكرار مثل هذه الأمور ، التي لا ضابط لها ، ولا يحب أن يكون سبباً في حدوثها .

وفي الوقت نفسه كان يؤدي واجب الدعوة إلى الله تعالى ، ويعمل على تربية المجتمع ليخرج منه الحاكم الصالح يتجلى ذلك في استفتاء بعض الناس له في قتال الطاغية ، ويقصدون « الحجاج » قائلين له : يا أبا سعيد ، ما تقول في قتال هذا الطاغية ؟ فقال الحسن : أرى ألا تقاتلوه ، فإنها إما أن تكون عقوبته من الله فما أنتم برادّي عقوبته ، ثم قال كلمته

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد حـ ٧ ص ١١٣ — ١١٤ ، والبيان والتبيين للجاحظ حـ ٣ ص ١٤٧ وما بعدها .

المشهورة : « يأيها الناس ، والله ما سلط الله عليكم الحجاج إلا عقوبة ، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ، ولكن عليكم بالسكينة والتضرع . . . »(١) .

ومن ناحية « الحجاج » كان يعتقد أنه لو بطش بالحسن لزاد ذلك من سخط المجتمع عليه ، ومن يدري لعل في ذلك ضياع حكمه .

كذلك كان لبقاً في تصرفاته ، صادق الفراسة . ومن ذلك ما قاله عبد الله بن ظبيان – الذي قتل « مصعب بن الزبير » – : « كنت يوماً واقفاً على باب الحجاج ، فإذا به قد خرج وحده ، وليس بالباب أحد ، فوقع في نفسي أن أقتله ، فنظر إلي وقال : هل لقيت يزيد ابن أبي مسلم – كاتب الحجاج – ؟ قلت : لا . قال : القه ، فإني وليتك على الريّ معه ، فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت إلى « يزيد » فلم أجد عنده شيئاً ، ففهمت أن « الحجاج » قال لي ذلك ، ليشغلني عما أردت به » إلى غير ذلك من الحوادث الدالة على حسن تدبير الحجاج ، ومعرفته كيف يفلت من المواقف الصعبة . ! !

كل هذا وغيره أدى – في نظري – إلى حسن الصلة بالحسن .

علاقة الحسن بالخليفة العادل عمر بن عبد العزيز :

ظل الوقت الذي تولى فيه « الحجاج بن يوسف الثقفي » ولاية العراق وما جاورها يسوده القلق والرعب والخوف ، لأن القوم لا يأمنون بطشه وظلمه ، لأي سبب من الأسباب ،

كما استمر « الحسن البصري » أيضاً في خطبه اللاذعة ، ودعوته إلى الله تعالى على بصيرة ، دون أن يهاب سلطاناً أو يخشى في الحق لومة لائم .

وظل الناس على ذلك حتى انتهى عهد الحجاج ، وجاء عهد « سليمان بن عبد الملك » فتنفس الناس الصعداء ، وسجدوا لله شكراً على زوال عهد الحجاج ، الذي كتم أنفاسهم ردحاً من الزمن ، وربي فيهم الجبن والذل .

ومما حبب الناس في « سليمان بن عبد الملك » أنه أقطع الناس الأرض الموات وأطلق

(١) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٧ وما بعدها

الأسارى ، وأفرج عن المعتقلين ، وأحسن إلى الناس حتى قالوا : « سليمان مفتاح الخير ! » حتى رضي عنه الكثير من الصالحين في وقته ، وفي مقدمتهم « الحسن البصري » فكان — رحمه الله — لا يتعرض للخليفة « سليمان » ولا لعماله بذم ، كما كان يفعل مع من سبقه ، ومع هذا التقدير لسليمان نجد « الحسن » لم ينتهز الفرصة ككثير من الناس في أخذ شيء من الموات ، فقد كان زاهداً ورعاً (١) .

واستمر الحال على ذلك ما بين مد وجزر ، حتى جاء الخليفة العادل « عمر بن عبد العزيز » رضي الله عنه ، حيث وجد « الحسن » في هذا الحاكم العادل ضالته المنشودة ، كما رأى فيه تحقيق حلمه الكبير الذي كان يراوده ، وأعجب به كثيراً للأسباب الآتية :

أولاً : كان « عمر » — رضي الله عنه — على أدب إسلامي رفيع ، فبعد أن ولي خلافة المسلمين بالطريق المشروع خطبهم بكلام طيب ليس فيه التهديد ولا الوعيد ، ولا الضرب بيد من حديد على يد من تسول له نفسه الخروج عن حكمه ، كما كان يصدر عن بعض الحكام السابقين ، وإنما خطبه تدل على فهمه لنفسه وللناس ، ولنضرب بعض الأمثلة :

قال : « أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم ، وأصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حيّ لمعرق في الموت ! ! » .

وقال : « أيها الناس ، إنه قد كان قبلي ولاة ، تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

وفي خطبة تالية يبين — رحمه الله — أسلوب العمل الذي سينهجه في سياسة الدولة ، فيقول : « أيها الناس ، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا على الخير ما لا نهتدي إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه (٢) » .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري حـ ٥ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم حـ ٢ ص ١١٥ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه حـ ٢ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، وتاريخ الإسلام السياسي . . . للدكتور حسن إبراهيم حـ ١ ص ١٩٦ .

ثانياً : عمل عمر على رد الحقوق إلى أصحابها ، وأغلق الأبواب التي يأتي عن طريقها الظلم والطغيان ، وألغى كثيراً من العادات والتقاليد التي تنافي الإسلام . . إلى آخر ما فعل من الإصلاحات ، حتى لم يوجد فقير في عهده تعطى له الزكاة ، فكانوا يعتقون منها الأرقاء (١) .

ثالثاً : قرن القول بالعمل ، فكان — رضي الله عنه — لا يقول قولاً إلا ويتبعه العمل ، ولهذا كان قدوة حسنة وأعاد بذلك عهد سلفه عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — .

وعلى سبيل المثال كان يعين على البلاد الولاة الأكفاء المخلصين ، وأي عدوان على البلاد الإسلامية كان يحدث في عهده يقابله بالشدة حتى لا يعود المعتدون إلى مثلها .

وبالنسبة للخارجين على الدولة من المسلمين ما كان يستعمل معهم العنف والبطش إلا بعد المناظرات الطويلة والمفتوحة ، لكي لا يكون لأحد منهم حجة (٢) .

هذه الأمور التي عرفناها عن الخليفة العادل « عمر بن عبد العزيز » جعلت « الحسن البصري » يقوم بدور إيجابي في بناء الدولة الإسلامية ، وقد أسهم — رحمه الله — مساهمة فعالة في توجيه الدولة إلى النظام المنشود الذي لا يختل أبداً إذا اتبع ، وبالفعل بدأ في إرسال عدد من الكتب والوصايا إلى المسئول عن الدولة ، ومن أعظم هذه الرسائل والكتب التي أرسلها إليه كتاب يصف فيه الإمام العادل كما ينبغي ، ويعتبر هذا الكتاب كدستور لكل حاكم عادل ، يريد الخير لدينه ووطنه والإنسانية كلها .

وللفائدة سأذكر هذه الرسالة كاملة ، خاصة وأن الخليفة « عمر » هو الذي طلب من « الحسن » أن يصف له الإمام العادل حتى ينتفع بهذا الوصف فأرسل إليه الحسن قائلاً :

« اعلم — يا أمير المؤمنين — : أن الله تعالى جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

« والإمام العادل — يا أمير المؤمنين — كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد

(١) ، (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ، وتاريخ الأمم والملوك للطبري جـ ٦ .

لهـا أطيب المراعي ، ويذودها عن مرائع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكتنفها من أذى الحر والقر .

« والإمام العادل — يا أمـير المؤمنين — كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

« والإمام العادل — يا أمـير المؤمنين — كالأم الشفيقة ، البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

« والإمام العادل — يا أمـير المؤمنين — وَصِيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربي صغارهم ، ويمون كبيرهم .

« والإمام العادل — يا أمـير المؤمنين — كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده .

« والإمام العادل — يا أمـير المؤمنين — هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلامه ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

« فلا تكن — يا أمـير المؤمنين — فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المـال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق عياله .

« واذكر — يا أمـير المؤمنين — الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

« واعلم — يا أمـير المؤمنين — أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره وحيداً فريداً ، فتزوّد له ما يصحبك :

﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ﴾ (١) .

« واذكر — يا أمـير المؤمنين — إذا بعثر من في القبور ، وحصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

---

(١) سورة عبس . الآية : ٣٤ — ٣٦ .

« فالآن – يا أمـــير المؤمنين – وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولاذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين ينعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك .

« لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله ، في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحيّ القيوم .

« إني – يا أمـــير المؤمنين – وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي ، فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابي هذا كمداوٍ حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو في ذلك له من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »(١) .

وروي أن « الحسن البصري » تولى القضاء في عهد « عمر » .

وهـــكذا شارك « الحسن » مشاركة إيجابية ، في بناء الدولة الإسلامية فرحاً مسروراً بخـــلافة الحاكم العـــادل عمر بن عبد العزيز .

رحلته إلى بيت الله الحـــرام :

في أواخر حياة الخليفة التقى « عمر بن عبد العزيز » أدى « الحسن البصري » فريضة الحج ، وكان قد حج في أول عمره مرة قبل ذلك ، وكان إذا ذهب إلى مكة في رحلته إلى بيت الله الحـــرام يجتمع عليه كثير من الناس ، فلم يجد بدأ من الحديث إليهم .

وبينما كان « الحسن » يوماً عند الحجر ، يحدث الناس ويقص عليهم ما يفيض عليه مولاه من المواعظ والعبر ، وإذا بعلي بن الحسين – المشهور بعلي زين العابدين – يجيء إليه ، فقال له : أترضى يا حسن نفسك للموت ؟ قال : لا . قال : فعملك للحساب ؟ قال : لا . قال : فثم دار للعمل غير هذه الدار ؟ قال : لا . قال : فلله معاذ غير هذا البيت ؟ قال : لا .

(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦ وما بعدها ، والعقد الفريد لابن عبد ربه حـ ١ ص ٤٩ .

قال : فلم تشغل الناس عن التطواف ؟ ! (١) .

مع الحسن في أيـــامه الأخـــيرة :

ظل « الحسن البصري » مستمراً في تبليغ الرسالة ، وتأدية الأمانة طول حياته حتّى في أيامه الأخـــيرة — زمن الشيخوخة وما يتعلق بها — .

كما استمرت عـــلاقته بالولاة ، من حيث النصح والإرشاد ، وجمع الأمة على كلمة سواء ، وكان يؤدي واجبه نحو الراعي بالنصيحة الخالصة ، ونحو الرعية بمشاركتهم في البأساء والضراء ، فكان يحضر الجنازة معهم راكباً الحمار لعدم استطاعته السير معهم .

وبسبب هذا الضعف والشيخوخة يرى بعض العلماء : أن بعض الفتاوي التي كانت تصدر من « الحسن » في هذا السن المتأخرة من حياته كانت تتأثر بما ذكرنا ، ويمثلون لذلك بفتواه عن عدم قتل الحـر بالعبـــد ناسياً حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « من قتل عبده قتلناه » (٢) .

كما تذكر بعض الروايات : أنه حينما قرب أجله طلب من خادمه أن تسجر التنور ، وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها جميعاً فأحرقت ، غير صحيفة واحدة ظلت في حوزة ابنه ، حتّى استعارها منه « مسلم بن حصين الباهلي » . ولا ندري لماذا فعل بكتبه هـــكذا ؟ علماً بأنه كان حريصاً على انتفاع المسلمين بخبراته وآثاره (٣) .

ومن يدري ؟ لعل « الحسن » لشدة ورعه وتقواه ، شعر بأن شيئاً في كتبه وصحفه لا يوافق كتاب الله وسنة رسوله ، فكأنه يريد بذلك أن يبريء نفسه أمام الله تعالى أنه لم يترك شيئاً يسجل عليه قد يكون فيه شيء من عدم رضا المولى تبارك وتعالى .

(١) أمالي المرتضى — القسم الأول ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ﺣ ٨ ص ٣٥ وما بعدها .

(٣) ، (٤) ، (٥) الحسن البصري لابن الجوزي ص ١٩ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ﺣ ٧ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ﺣ ٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ﺣ ٤ ص ١٠٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى العربية — المجلد السابع — ترجمة « الحسن البصري » .

وعلى كل فقد ترك الحسن – رحمه الله – تلاميذه يحملون علمه وفقهه ويبلغونه إلى الناس .

كذلك كان يزودهم بالنصيحة ، لكثرة الناس حوله ، ولم ينس الوصية الأخيرة التي يجب أن يتذكرها كل مسلم . دعا الحسن بمن يكتبها . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإن الحسن – عبد الله وابن أمته يشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . من لقى الله بها – صادقاً لسانه ، مخلصاً قلبه – أدخله الله الجنة » ثم قال : « سمعت معاذاً يقول ذلك ، ويوصي به أهله ، ثم قال معاذ : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك ويوصي به أهله » (٤) .

وأخذت نهاية الحسن تقترب رويداً رويداً ، والمرض يشتد به حتى وصل إلى حالة لم يستطع أن يقول فيها إلا الاسترجاع – كما يقول ابنه – والجميع يلتفت إليه في رعدة وخشية من هول الموقف .

وفي ليلة الجمعة في مستهل شهر رجب من عام ١١٠ هـ (١٠ أكتوبر ٧٢٨ م) أسلم الروح إلى خالقها ، وصلى عليه عقب صلاة الجمعة ، وحزن الناس عليه حزناً شديداً حتى إن صلاة العصر لم تقم يومئذ في جامع البصرة ، وذلك لأن الناس تبعوا جنازته ، وهو أمر لم يحدث قبل ، منذ أن جاء الإسلام إلى هذا المكان (٥) .